عن فاجعة الفردوس المفقود : الفاجعة لا في أنه الفردوس الذي فقد ، بل في الفقدان ذاته ، لفردوس كان أو لنار . في ١٩٥٠ و ١٩٦٠ لم يكن الجبن الذي صدني ، اخيرا ، من الانتحار .

ولماذا لا أنتحر مرة واحدة ؟ ألم ... تكتشف ان في من (من ماذا ؟ أجل قلها : من النرطقة ، من الماسوكية ، من الانحراف ؟) ما يجعلني استمرىء الانتحار التدريجي البطيء ، أتلذذ ، أتمتع به ، ارتمي عليه ارتماء الرضيع على ثديي ماردة ، والمحب على حبيبة — أفعى ، فلا أود ان استعجل الشبع الكافي ، ولا اللذعة ، المرهقة — المريحة ، الحاسمة ؟

حاولت « كاي » العودة اليه ، لكنه قاومها رغم تهديدها له بالقتل او التشويه . الا ان قلبه لم يسترجع سلامه . ففي القصيدة الثانية عشرة من « القصيدة ك » يتذكر كيف كان ولهان بحب « كاي » ومستعدا لاعطائها قلبه ثم يجدها تغدر به :

خليا كنت ، / بريئة ارضي . / أجئت تعيدين علي / ماساة بلادي ؟ / فتحت ، فتحت لك أعماقي / وأعطيتك الشط والتلال / وحملت التربة الحية بكف / نبشتها لك من الاقاصي / والماء بكف ، / وقلت لخضرة واحتيك اليوم / وخضرة ارضي غدا / وللمدارس والمعابد والمصحات / والزورق الذي جاء على زرقة البحر / وكأنه جاء على زرقة السماء . / لو عرفت لو عرفت ، / وكيف بعرف زارع الزيتون والعنب / ان القتال ، / كيف يعرف عاصر الزيت والنبيذ / معنى للقتال ؟ / وأقصى أقصى ما علمتني الذكرى / جيشان يقتتلان بأرض ثالث / أو بلد يخرب الديار ويجلو / وينقى بعده الدم وتشمخ المباني ، / ولم تعلمني عن بلد / يخرب ويعمر لذاته / ويجلي ولا يجلو .

يلاحظ في هذه القصيدة أن الوطن والحبيبة يندمجان مع اشتداد حبه . ان المستوطنين الصهيونيين في فلسطين الذين أعطوا الساحل والتلال ليطـــردوا في النهايـــة العرب الفلسطينيين ترتسم صورتهم في وعي الشاعر عندما تصبح حبيبته امرأة غازية بعد أن فتح لها أعماق أعماقه . ان حبه لهذه المرأة هو في وعيه نقيض حبه لامه : ان حب «كاي» مهلك اما حب امه فهو دافق ، الاول جحيم والثاني نعيم . لقد ظن ان بامكانه احلال احدهما محل الآخر ولكن كانت الفرصة قد فاتته عندما اكتشف انهما متصارعان وأنه هو حلبة الصراع .

ان هذه الافكار ومشاعر الشاعر الدينية تجاه الخطيئة ونفيه من وطنه واغترابه في المدنية الحديثة شكلت مادة أعظم قصائده وهي تلك التي نشرت تحت عنوان « القصيدة الاخيرة » في العدد العشرين من مجلة « شعر » في العام ١٩٦١ والتي نشرت منفصلة في كتاب في العام ١٩٦٣ بعنوان : « معلقة توفيق صايغ » .

يصور الشاعر بايجاز في هذه القصيدة تجربته في الحياة وذلك في أجزاء اربعة مثل حركات السيمفونية الاربع ويرى في مكان آخر من القصيدة في امه و K مريمين فيقول :

سيفا النار لا يتعبان / يترنحان ولا يهويان / من يد المريمين : / مريم الاحزان ومريم الاحزان ، / مريم الهدوء ومريم المنخب ، / مريم الغرس والعناية / وميناء السلامة ومسح الجبين / ومريم المطرقة والفأس / وبذر البذور / والاظفار تغرز في الحبيب قبل الغريم / والذات قبل الحبيب ، / مريم البذل والوقاية / ومريم تطلب كل يوم ضحية ، / مريم القلب ومريم الجسد ، / مريم الاحزان ومريم الاحزان ، / مريم الحب ومريم الحب ، / مريمين ، مريم .

وبعد صلب الحب هذا يشطح الشاعر « جثته » مـــن مكان لمكان متمتمـــا صلوات قدسيتها ليقول في النهاية :

وأرفع يدي / وقلبي وفمي : / « أعني . أعني » .

انه يسعى وراء عون يسوع لانه بحاجة اليه ، فهو معلق بين الحياة والموت .

الخالق : وننتقل الى موضوع الله عند توفيق لنجده معرّفا حسب الظرف فهو يسوع